

شيء من الفكاهة

جاءت الإشارة إلى الضحك في القرآن الكريم مرة في قصة إبراهيم ، ومرة في قصة سليمان عليهما السلام .

ففي قصة إبراهيم : يقول إبراهيم حين زارته الملائكة فلم يعرفهم وخافهم حين بشروه بولادة إسحاق من زوجته سارة :

﴿ فَأَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتْلُقَءُ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

[سورة هود: ٧٠-٧٢]

كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك ملطدا في مواضعه المختلفة من تحول الشعور طمأنينة بعد خوف ، ومعرفة بعد تكران ، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة بعد سن اليأس ، وخيبة الأمل في الذرية زمنا طويلاً تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والعزاء والغيرة والتسليم.

ولا تعني هنا كلمة " سُرَّتْ ، أو كلمة استبشرت ، أو فرحت " في مكان ضحكت ، لأن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النفس حالات متناقضات ، وجاء في القرآن الكريم عن قصة سيدنا سليمان عليه السلام :

﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَاقَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ تَمَلَّ بِأَيِّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) فَنَبَسَهُ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ [سورة النمل: ١٩]

فها هنا عوامل الضحك على سجيتهما ماثلة في نقائضها الدقيقة ومصاحباتها التي تقتزن بها على حسب هذه المناسبة دون غيرها ، وهي مناسبة مخالفة في بعض أجزائها لمناسبة الضحك في قصة إبراهيم . هنا الفرق الشاسع بين ضالة النملة وبين ضخامة الملك الذي أوتيه سليمان .. وهنا رضي سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة والغبطة وتلهمه من الشكر والخشوع ، وكل ذلك آت من حيث لا ينتظر من نملة ضئيلة تخشى أن تحطم هي وواديها كلها ، ولا يشعر بها سليمان العظيم . وورد الضحك في آيات متفرقة بمعنى السخرية والاستهزاء. (١)

والضحك فضلاً عن وروده في القرآن الكريم ، فقد تناوله علماء التربية وعلم النفس على أنه ضرب لازم للنفس البشرية ، ففيه الراحة والعزاء " وزبدة رأي فرويد أن النكتة ضرب من القصد الشعوري والعملي ، يلجأ إليه الإنسان في المجتمع ليعفي نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ، ويتحلل من الحرج الذي يوقعه فيه الجد ولوازم العمل ، وأن النكتة تشبه الحلم في أساليبه ، وهي التورية والتأويل والاختزال والمسوخ ، أي جمع الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لا تجتمع في الواقع . ومن الناس من يقولون عن الرجل : إنه يمزح أو يقولون عنه إنه يحلم على السواء ، حين يريدون إعفاءه من المؤاخذه ، ولا يريدون الجد معه في المحاسبة

والتحقيق ، وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغه بالحجة والدليل
وكذلك يحتال في أحلامه على تحقيق الأماني التي تفوقه في اليقظة وتشغل باله على
غير جدوى " (٢) .

فلاهاث غنيم :

وقد حظيت الفكاهة بنصيب كبير في ديوان الشاعر غنيم ، ونستطيع أن
نستعرض بعض النماذج من شعره الفكاهي على سبيل المثال لا الحصر .

* وقع أحد أصدقائه من الشعراء ضحية نшал (لص) محترف ، فسرق
نقوده كلها .. فكتب غنيم يداعبه مبينا له أنه أرهق اللص وخذعه ، إذ لم يجد صيدًا
شينا لخواء جيب الصديق ، يقول :

هون عليك وجفف دمعك الغالي لا يجمع الله بين الشعر والمال
إنا لفي زمن فقد النقود به يدمي العيون كفقد الصحب والآل

ثم بنهائم على صدقته الشاعر مداعبا :

من أين أصبحت ذا مال فتسلبه؟ يا أشبه الناس في رقة الحال
فيالها سبعة في جيبك انطلقت وأنت أحوج مخلوق لتمثال
فريسة من يد السنور سائغة شتان ما بين سنور ورنبال
عود نقودك واعتد حوالها عقدا وثيقة تتحدى كل حلال
قالوا خلت يده من كل ما ملكت فقلت : بل رأسه من عقله خال
لم يبق عندك ما تخشى عليه فنم كما أنام قريبا ناعم البال
نفسى فداوك ليت اللص صادفتي قد يغلب اللص بالإفلاس أمثالي ا .

ثم يعجب غنيم مما حدث ويتساءل مداعبا : كيف يقضي هذا المسكين

بقية أيام الشهر؟

يا ليت شعري ، ماذا أنت صانعه ؟
 أنزع الصوم حتى شهرك التالي؟
 إن كان ينتفع الظمان بالآل
 أقسمت ما سلبت تلك النقود يدُ
 لكنها أبقت من جيبيك البالي
 الذئب لا يشتهي لحم ابن جدته
 فكيف أوقع نшал بنشال؟ (٣)
 * الآل : السراب
 ° أبى : هرب

ومن قلاهاثة اللاذع : ما قاله عن صديق له مشهور بالخوف والغزع من أقل
 الأشياء ، أغمي عليه في المخبا عند أول غارة جوية حدثت إبان الحرب العالمية
 بمدينة الإسكندرية ، فلقب بقول مداعبا :

أرأيت صنع محمد
 في مخبا بالناس حافل
 سمع الصفير مدويا
 فتنفكت منه المفاصل
 ما كان أشجعهم فقد
 لا قى القنابل بالقنابل

ووهت عزيمته فأقلت يابس منه وسائل!

وضاعت من الشاعر ساعة كان يمتلكها ، فحزن عليها كثيرا ، فكتب يصور

حاله حزينا لفقدها :

وساعة كالسوار حول يدي
 حتى طواها الزمان للأبد
 ما زال يطوي الزمان عثرها
 ضاعت فوهى ضياعها ولدي
 ضيعها نجلي الصغير وكم
 حملني من خسارة ولدي

قالوا : فداءً له ، فقلت لهم
قالوا : التمس غيرها فقلت لهم
ثم بين أن أحواله قد ارتبكت ، واطلخ عليه الأمر بسبب فقدانها ، كيف
لا ؟ وهي التي كانت تنظم له أوقاته ، ومن خلالها تتحدد مواعده ، وتنجز أعماله
بفعل :

التبست أيامي عليّ ، فلا
واختل وقتي فإن وعدتك أن
أمسيت يدي بعدها معطلة
قد لازمت معصمي سنين إلى
أفرق ما بين السبب وال أحد
أزورك اليوم ، جنّت بعد غد
منظرها في العيون كالرمد
أن أصبحت قطعة من الجسد
وفي نهاية القصيدة ، يدعو على من سرقها بالهلاك والبوار ، والخسران
بفعل :

شتان بيني وبين لاقطها
ليت الذي طوقت بها يده
وعن ديك هزبل أقام به للشاعر أحد أصدقائه مادية في سفح الهرم ، فكتب
بفعل في دعابته ومرح :

يا صاح مالك والكرم
شهدت ببخاك ليللة
تباليديك يا أخسي
البخل طبعك من قـدم
قمرأء في سفح الهرم
هضم الحديد وما هضم

ثم بصف هزال الدبك وضعفه فأثلا :

ديك هزيل الجسم تر كاله الجرادة بالقدم

في دولة الأدياك كان من السعاة أو الخدم

خلتاه في الأطباق رسما بالمداد وبالقلم

جاد يحيط بأعظم للاحم فيه ولا دسم

زعموه روميا ومنه العرب تبرا والعجم

اشتبك صديقه (العوضي الوكيل) في شجار مع الجيران ، بسبب كلب

فأقاموا عليه قضية وضع بسببها في قفص ، فكتب بداعبه فأثلا :

حبسوك في قف ولسنت بضیغم لكن نزلت به نزول المجرم

اليوم في قفص حللت وقي غد تلقى الرجال بقعر سجن مظلّم

عجبي عليك يكرم الكلب الذي خاصمته وتبيت غير مكرم

فيم اشتباك بالكلاب ؟ وإنما يحنو القريب على القريب المحرم

وذهب يزور صديقه (محمود الخفيف) في منزله ، فقال مداعبا :

صاح قد جعت فهيء لي كبابا ورغيفا

واسقني شايًا ثقيلًا قاتل الله الخفيفا

القريب المحرم : هو الذي لو كان أنثى ما حل زواجها ، كالأخ والخال والعم

وما إلى ذلك .

ومن فكاهاته الطيبة أنه تأمر عليه صديقان له ، واحتالا عليه حتى دعاهما

لمأدبة طعام في مطعم مشهور ، فلما أحس كيدهما له في المغالاة فيما يطلبان

غافلها وانصرف خارجا من المطعم وتركهما يدفعان ثمن الطعام كله ، وأنشد بقول
في ذلك :

راما الغذاء على حسابي فنقاسما ثمن الكباب
وخلت جيوبهــــــــما فلم يجدا سوى رهن الثياب
عضا الأنامل بعدما عضا الحمام بكل ناب
من قال : إن عليّ إطعام المساكين السخاب .

أنا لا أغذي البطن يو ما بالطعام أو الشراب
لكن أغذي العقل إن هو جاع بالأدب اللباب
وشرب الشاعر قهوة لم تعجبه عند صديقه العزيز (عزيز) فقال :

عزيز ليس بالرجل العزيز بخيل بخله بخل غريزي
لديه قهوة من غير بن يحليها بملح إنجليزي
ولكن (عزيزا) عاد فبرهن على كرمه ، فدعا الشاعر إلى وليمة ، طيبة أكثر
فيها من ألوان الطعام ، فأنشأ الشاعر بقول :

أقسمت لم تك يا عزيز مقصرا بل كنت مثلي في السخاء وأكثر
لكن بخلك لا يزول بدعوة يا صاح بل لا بد أن تتكررا
* اللباب : الخالص .

○ ومن نوادره :

شكا الشاعر (العوضي الوكيل) لشاعرنا قرار حظر ذبح المواشي بضعة أيام

فداعبه بهذه الأبيات :

قرار الذبائح لما صدر بكى ابن الوكيل بدمع المطر

وأقسم ما شم ريح اللحوم ولا ذاقها مرة في العمر
وهل يأكل الكيش لحم الشياه؟ وهل يأكل الثور لحم البقر؟
وما أنت واللحم يا ابن الوكيل؟ بحسبك أكل لحوم البشر

وقال بداعب ابن الوكيل :

يا بائع الليمون في الأسواق بالثمن القليل
إني أملك - إن أردت غنى اليهود - على السبيل
اعرضه في الحفلات بعد سماع شعر ابن الوكيل

وفي مداعبة أخرى لصديقه ابن الوكيل يقول :

أنا إن أردت تخلصا في البيت من ضيف ثقيل
أنشدت هذا الضيف بيتا واحدا لابن الوكيل ولو أنني ثنيت أقعده
الصداق عن الرحيل وهكذا كان الشاعر محمود غنيم خفيف الخلل ، ظريفا ، يتمتع
بروح الدعابة الجميلة ، والفكاهة الباسمة وكان يشيع جوا من المرح والسرور
في نفوس رفاقه وأصدقائه .

الهوامش

- ١- عباس محمود العقاد ، المجموعة الكاملة ، المجلد السادس عشر ، ط١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٠ ص ٢٩٥ ، ٣٨٦ .
- ٢- محمود غنيم ، صرخة في واد (قصيدة : مداعبة صديق) ص ٢٥٣ .
- ٣- نفسه (قصيدة : في الخبأ) ص ٢٥٨ .
- ٤- محمود غنيم ، في ظلال الثورة (قصيدة : حبسوك في قفص) ص ٥٨٦
- ٥- نفسه (قصيدة : أي الخفيفين ؟) ص ٥٨٧ .
- ٦- محمود غنيم ، في ظلال الثورة (قصيدة : مؤامرة على شاعر) ص ٥٨٠
- ٧- نفسه (قصيدة : بخل غريزي) ص ٥٨١ .
- ٨- نفسه (قصيدة : قرار الذبائح) ص ٥٨٥ .
- ٩- محمود غنيم ، رجع الصدى (قصيدة : يا بائع الليمون) ص ٨٨٢ .
- ١٠- نفسه (قصيدة : بيت واحد) ص ٨٨٣ .